٢- نظام القافية

(الباب والفصل)

تمهيد

قبل أن يبتدع الجوهري نظام القافية القائم على ترتيب المواد حسب النظام الألفبائي مع اعتبار أواخر الأصول، عرف العرب عدة أنظمة في ترتيب مواد معاجمهم أشهرها:

١- النظام الخليلي القائم على ترتيب المواد حسب مخارج الحروف ووفق ترتيبه الخاص بها مع مراعاة نظام التقليبات، وقد أسلفنا القول في هذا النظام في تمهيد الفصل الأول من كتابنا هـــذا.

٢- نظام ابن دريد (٨٣٨ م ٩٣٣ م) في معجمه الجمهرة الذي جمع فيه النظام الألفبائي في ترتيب المواد حسب أوائل أصولها، والنظام الخليلي في التقليبات، إذ كان يبدأ الباب بالحرف الذي وقف عليه الباب آخذاً بالحرف الذي يليه تاركاً ما سبقه، فإن كان في باب الجيم مثلاً، بدأ بتأليف الجيم مع الحاء ثم الحاء فالدال وهكذا إلى الياء. تاركاً ما قبل الجيم، أي أنه لا يؤلف الجيم مع الهمزة أو مع الباء أو مع التاء أو مع الثاء. لأنه يكون قد ذكرها في ما سبق من الأبواب. ولم يشكل ابن دريد مدرسة في ذاتها لعزوف الناس عن اتباع نهجه.

الصحاح

وضعه أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى سنة ٣٩٨ .

وهو من كبار علماء اللغة في القرن الرابع من الهجرة ، ومعجمه الموسوم باسم تاج اللغة وصحاح العربية الذي عرف اختصاراً بالصحاح ثمرة طيبة من ثمار الثقافة العربية التي ازدهرت في هذا القرن وآتت أحسن الثمرات .

ويقال في اسم الكتاب الصِّحاح بكسر الصاد ، وهو جمع صحيح ، ويقال : الصَّحاح ، بفتح الصاد ، وهو بمعنى الصحيح .

جاء في المزهر للسيوطي نقلاً عن الخطيب التبريزي : « يقال : كتاب الصِّحاح ، بالكسر ، وهو المشهور ، وهو جمع صحيح كظريف وظراف . ويقال : الصَّحاح ، بالفتح ، وهو مفرد نعت كصحيح . وقد جاء فَعال ، بفتح الفاء ، لغة في فَعيل ، كصحيح وصَحاح ، وشحيح وشَحاح ، وبريء وبَراء (١) » .

قال الجوهري في مقدمة كتابه « أما بعد فاني أودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة التي شرف الله منزلتها ، وجعل علم الدين والدنيا منوطاً بمعرفتها (٢) » . وقوله « ما صح عندي من هذه اللغة » ينبيء أن غرض الجوهري كان جمع الصحيح من الفاظ اللغة . واسم

(١) المزهر ١/٩٧ .
(٢) الصحاح ١/٣٣ .

الكتاب نفسه يفصح عن هذا الغرض الذي أراده الجوهري . وقال السيوطي في كتابه المزهر حين كلامه على معجمات اللغة : « وقال هذه الكتب لم يلتزم فيها مؤلفها الصحيح ، بل جمعوا فيها ما صح وغيره . وينبهون على ما لم يثبت غالباً . وأول من التزم الصحيح مقتصراً عليه الإمام أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري ، ولهذا سمى كتابه الصحاح (١) » . وهذا يعني أن مؤلفي المعجمات قبل الجوهري كانوا يذكرون في كتبهم الى جانب الصحيح ما لم تثبت صحته من الفاظ اللغة مع التنبيه على ذلك وتبيين زيفه . حتى جاء الجوهري فلم يذكر في كتابه الا ما ثبتت صحته ، واطرح ما سواه .

ولاقتصار الجوهري على تدوين ما ثبتت صحته من الفاظ اللغة فحسب ، واعراضه عن ذكر غير ذلك ، جاء معجمه هذا صغير الحجم مختصراً .

الف الجوهري معجم الصحاح في مدينة نيسابور ، وهي حاضرة اقليم خراسان ، بعد أن درس في بغداد ، وروى اللغة فيها ، وبعد أن خالط العرب العاربة في البادية ، وأخذ عنهم اللغة . قال بين ذلك في مقدمة الكتاب : « أما بعد فاني أودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة ... بعد تحصيلها بالعراق رواية ، واتقانها رواية ، ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية (٢) » . وذلك ان الجوهري « دخل ديار ربيعة ومضر في طلب الأدب ، واتقان لغة العرب (٣) » . وهناك

(١) المزهر ١/٩٧ .
(٢) الصحاح ١/٣٣ .
(٣) انباه الرواة ١/١٩٤ .

كانت مشافهة العرب ، وروايته عنهم .

رتب الجوهري الصحاح على حروف الهجاء ، وقسمه الى ثمانية وعشرين باباً بعدد حروف الهجاء ، لكل حرف منها باب ، وقسم كل باب أيضاً الى ثمانية وعشرين فصلاً . فكان باب الألف المهموزة هو الباب الأول ، وباب الياء هو الباب الأخير من الكتاب . ولكن الجوهري رتب ألفاظ اللغة في كل باب حسب أواخرها لا حسب أوائلها ، أي انه نظر الى الحرف الاخير من اللفظة حين ترتيبها ، ولم ينظر الى الحرف الأول منها ، كما كان يفعل أصحاب المعجمات قبله . ولذلك نجد في هذا المعجم كلمة (قرأ) مثلاً في باب الألف ، لا في باب القاف ، وكلمة (كتب) في باب الباء ، لا في باب الكاف ، وكلمة (أخذ) في باب الذال ، لا في باب الألف . وهذه طريقة جديدة ابتدعها الجوهري لنفسه ، وكان أول من استعملها في ترتيب معجم .

على أن الجوهري جمع ألفاظ اللغة بعد ذلك في كل باب ورتبها فيه بترتيب حروف الهجاء حسب أوائلها كما صنع أصحاب المعجمات قبله . وهذا يعني أننا نجد الألفاظ التالية : أدب ، أرب ، جرب ، حزب ، درب ، سبب ، شغب ، ضرب ، عرب ، غرب ، في باب الباء جميعاً ، وبهذا الترتيب الذي سقناها فيه ، أي حسب أوائلها كما نرى .

وهكذا نرى أن الجوهري قد أعرض عن الاعتبارات الصرفية في تقسيم الكتاب وترتيبه ، وأبعد عن ذهنه فكرة الأبنية ، وألغى كذلك مبدأ التقليبات ، وتخلى عنها دفعة واحدة كما صنع ابن فارس في مقاييس اللغة . وكان الخليل حين وضع معجم العين قد ارتطم في وهدة الابنية

الصرفية كما رأيناه . واتبعه مؤلفو المعجمات ، وظلوا بعده يتخبطون في هذه الوهدة سنين طويلة ، مثل ابن دريد والأزهري وابن فارس في القرنين الثالث والرابع ، ومثل ابن سيده في القرن الخامس . حتى جاء أبو نصر الجوهري أواخر القرن الرابع ، فبلغ غاية التهذيب والتقريب في ترتيب المعجمات العربية ، وتخلص من جميع العسر والتعقيد الناشىء عن نظام الابنية ومبدأ التقليبات التي ضل فيها المؤلفون وتاهوا .

وهذه الغاية التي بلغها الجوهري كانت نتيجة تطور طويل وتجارب كثيرة في طريق طويلة مر بها هؤلاء المؤلفون جيلاً بعد جيل . وكان الجوهري مدركاً فوزه الذي حققه في هذا السبيل ، فقال لذلك في مقدمة كتابه : « أما بعد فاني قد أودعت هذا الكتاب ما صح عندي من هذه اللغة ... على ترتيب لم أسبق اليه ، وتهذيب لم أغلب عليه ، في ثمانية وعشرين باباً ، وكل باب منها ثمانية وعشرون فصلاً على عدد حروف المعجم وترتيبها[1] » .

تلقى الناس الصحاح بالرضا والقبول ، لاختصاره وحسن ترتيبه وسهولة المطلب فيه ، وأقبلوا يتداولونه حتى بهرهم وطارت شهرته بينهم . وطوى القرون وهو في طليعة المعجمات العربية . قال ابن منظور صاحب لسان العرب : « ورأيت أبا نصر اسماعيل بن حماد الجوهري قد أحسن ترتيب مختصره ، وشهره بسهولة وضعه ... فخف على الناس أمره فتناولوه ، وقرب عليهم مأخذه فتداولوه وتناقلوه[2] » .

(١) الصحاح ١/٣٣ .
(٢) لسان العرب ١/٣ .

وقال فيه ياقوت الحموي في معجم الأدباء : « كتاب الصحاح هو الذي بأيدي الناس اليوم ، وعليه اعتمادهم ، احسن الجوهري تصنيفه ، وجود تأليفه ، وقرب متناوله . يدل وضعه على قريحة سالمة ، ونفس عالمة . فهو أحسن من الجمهرة ، وأوقع من تهذيب اللغة ، وأقرب متناولاً من مجمل اللغة (١) » .

واستأثر الصحاح باهتمام العلماء طوال العصور ، فتدارسوه ، وألفوا حوله كتباً كثيرة مختلفة بالتعليق عليه أو تكملته أو تصحيحه والاستدراك عليه . ومن أحسن حواشيه الأمالي التي أملاها عليه الشيخ أبو محمد ابن بري ، وسماه بالافصاح عما وقع في الصحاح . وبلغ الأمر بالفرس فترجموا الصحاح الى الفارسية ، واتخذوه معجماً عربياً فارسياً . وكذلك فعل الترك ، وجعلوا الصحاح معجماً عربياً تركياً (٢) .

ولكن معجم الصحاح على حسن وضعه وجودة ترتيبه وسهولة مطلبه جاء صغير الحجم مختصراً بالقياس الى سعة مادة اللغة العربية وغزارة ألفاظها . فهو لذلك غير واف بالغرض عند العلماء . حتى قال فيه ابن منظور صاحب لسان العرب من هذا الوجه : « غير أنه في جو اللغة كالذرة ، وفي بحرها كالقطرة ، وان كان في نحرها كالدرة (٣) » . فلذلك ظلت حاجة العلماء الى معجم أوسع وأجمع قائمة غير مسدودة الى أن جاء ابن منظور ، وألف معجمه الكبير لسان العرب ، فسدّ به هذه الخلة وأوفى .

(١) معجم الادباء ٦/١٥٥ . ومجمل اللغة معجم مختصر لابن فارس.
(٢) انظر في ذلك الصحاح ، مقدمة المحقق ٢٠٧ — ٢٠٨ .
(٣) لسان العرب ١/٣ .

طبع معجم الصحاح أول مرة في مجلدين اثنين في مطبعة بولاق في القاهرة سنة ١٢٩٢ هـ . ثم طبع مرة ثانية في ستة أجزاء في القاهرة أيضاً سنة ١٩٥٦ — ١٩٥٧ طبعة جيدة بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار .

منهج الجوهري :

١ — نظام الفصل والقافية .
الباب الحرف الأخير
الفصل الحرف الأول

٢ — اعتماده على الصحيح وتركه للشاذ والغريب .

٣ — المسائل النحوية والصرفية .

٤ — التعبير عن الحركات بالعبارة .

سفتح الجيم وضم الصاد .

لسان العرب

وضعه جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم المعروف بابن منظور نسبة الى أحد جدوده والمتوفى سنة ٧١١ • وكان عالما بالنحو واللغة والحديث والتاريخ وسائر علوم اللغة •

ومعجم لسان العرب أكبر المعجمات التي وضعت في اللغة العربية ، وأعظمها في القديم والحديث اطلاقا • بل هو يتجاوز حدود المعجم اللغوي ، ويرقى الى منزلة دائرة المعارف بما تضمنه من معارف كثيرة ومختلفة في جميع فروع الثقافة العربية الى جانب جمعه ألفاظ اللغة • وهو حصيلة خمسة قرون من التطور والتجريب في تأليف الكتب والمعجمات في اللغة العربية • وفيه مجموع ما حصله أجيال العلماء ، وجمعوه في هذا الميدان طوال هذه القرون ، تلقفها ابن منظور ، وافرغها في معجمه • فكان أعظم معجم للعربية كما قلنا • وقد يفوقه معجم تاج العروس في الحجم • ولكن التاج في أصل وضعه صورة مكررة للسان العرب كما سنبين حين كلامنا على التاج في صفحات آتية •

أراد ابن منظور من تأليف لسان العرب ان يضع معجماً جامعاً شاملاً يضم أكبر قدر من المادة اللغوية مع حسن الوضع والترتيب • فقد رأى المعجمات التي ألفت قبله لا تجمع هاتين الصفتين معا ، فأراد أن يحققهما في معجمه • قال يبين ذلك في مقدمته : « واني لم ازل

مشغوفاً بمطالعات كتب اللغة ، والاطلاع على تصانيفها ، وعلل تصاريفها • ورأيت علماءها بين رجلين ، أما من أحسن جمعه فانه لم يحسن وضعه • وأما من أجاد وضعه فانه لم يجد جمعه • فلم يفد حسن الجمع مع اساءة الوضع ، ولا نفعت اجادة الوضع مع رداءة الجمع [1] » •

فاستعرض ابن منظور كتب اللغة التي ألفت قبله ، ونظر فيها ، فلم يجد فيها « أجمل من تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ، ولا أكمل من المحكم لأبي الحسن علي بن اسماعيل بن سيده الاندلسي ، رحمهما الله • وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق ، وما عداهما بالنسبة اليهما ثنيات للطريق • غير أن كلا منهما مطلب عسر المهلك ، ومنهل وعر المسلك • وكأن واضعه شرع للناس موردا عذباً ، وجلاهم عنه ، وارتاد لهم مرعى مريعاً ، ومنعهم منه • قد أخر وقدم ، وقصد أن يعرب فأعجم • فرق الذهن بين الثنائي والمضاعف والمقلوب ، وبدد الفكر باللفيف والمعتل ، والرباعي والخماسي ، فضاع المطلوب • فأهمل الناس أمرهما ، وانصرفوا عنهما • وكادت البلاد لعدم الاقبال عليهما أن تخلو منهما • وليس لذلك سبب الا سوء الترتيب ، وتخليط التفصيل والتبويب • ورأيت أبا نصر اسماعيل بن حماد الجوهري قد أحسن ترتيب مختصره ، وشهره بسهولة وضعه ... فخف على الناس أمره فتناولوه ، وقرب عليهم مأخذه فتداولوه وتناقلوه • غير أنه في جو اللغة كالذرة ، وفي بحرها كالقطرة ، وان كان في نحرها كالدرة [2] » •

(١) لسان العرب ١/٢ •
(٢) لسان العرب ١/٢ — ٣ •

وفي هذه الكتب الثلاثة وجد ابن منظور ضالته ، فاختارها من بين كتب اللغة ، واتخذها أصولاً لكتابه . وجد السعة وغزارة المادة اللغوية في التهذيب للأزهري والمحكم لابن سيده ، فحاز ما فيهما الى معجمه . ورأى حسن الوضع وسهولة الترتيب في الصحاح فاتبع طريقته في وضع كتابه . ثم رأى ابن منظور ان الشيخ أبا محمد ابن بري قد تتبع ما في الصحاح ، وأملى عليه امالي . فاختار هذه الأمالي أيضاً ، وجعلها أصلاً من أصوله . ثم قصد توشيح معجمه « بجليل الأخبار وجميل الآثار » من أحاديث الرسول . فاختار لذلك كتاب غاية النهاية في غريب الحديث لأبي السعادات ابن الاثير ، وأضافه الى أصوله أيضاً ، وهو أكبر كتاب في غريب الحديث وضع في اللغة العربية . وبذلك تمت الأصول التي اعتمد عليها ابن منظور خمسة ، وهي :

١ ـ تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري .

٢ ـ المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده .

٣ ـ تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري .

٤ ـ أمالي الشيخ أبي محمد ابن بري على الصحاح الموسومة بالتنبيه والافصاح عما وقع في الصحاح .

٥ ـ غاية النهاية في غريب الحديث لابن الاثير .

وهذه الأصول الخمسة تكاد تكون جامعة لكتب اللغة التي ألفها علماء العرب خلال القرون التي سبقت تأليف معجم لسان العرب .

(١) لسان العرب ١/٣ .

وقد احتاز ابن منظور ما في هذه الأصول ، وأفرغه في معجمه . وصرح بذلك في مقدمته في تواضع العالم الذي يعرف الحق ويديه ، فقال : « وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمتّ بها ، ولا وسيلة أتمسك بسببها ، سوى أني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم ، وبسطت القول فيه ولم أشبع بالتيسير ، وطالب العلم منهوم . فمن وقف فيه على صواب أو زلل ، أو صحة أو خلل ، فمهدته على المصنف الأول ، وحمده وذمه لأصله الذي عليه المعول ، لانني نقلت من كل أصل مضمونه ، ولم أبدل منه شيئاً فيقال : فاتما اثمه على الذين يبدلونه ، بل أديت الامانة في نقل الأصول بالفص ، وما تصرفت فيه بكلام غير ما فيها من النص . فليعتمد من ينقل عن كتابي هذا أنه ينقل عن هذه الأصول الخمسة (١) » .

وليس معنى هذا ان ابن منظور لم يأت بشيء من عند نفسه ، بل كان يضيف أشياء الى الشروح ، ويعقب عليها ، ويثبت آراء ومذاهب له . ولكنه كان ينقل المادة اللغوية من أصوله ، ولا يضيف اليها شيئاً جديداً .

حقق ابن منظور غرضه الذي أراده من تأليف لسان العرب ، فجاء هذا المعجم أجمع معجم لألفاظ اللغة العربية مع حسن الوضع وجودة الترتيب ، وكان بذلك واسطة عقد المعجمات العربية . وقد شعر المؤلف بعظم العمل العلمي الذي أنجزه ، وأدرك جلالته ، فقال يبين ذلك في

مقدمته : « فجاء هذا الكتاب بحمد الله واضح المنهج ، سهل السلوك ، آمنا بمنة الله من أن يصبح مثل غيره وهو مطروح متروك . عظم نفعه بما اشتمل عليه ، وغني بما فيه عن غيره ، وافتقر غيره اليه . وجمع من اللغات والشواهد والادلة ما لم يجمع مثله ، لان كل واحد من هؤلاء العلماء انفرد برواية رواها ، وبكلمة سمعها من العرب شفاها . ولم يأت في كتابه بكل ما في كتاب أخيه[1] » .

طبع معجم لسان العرب أول مرة في المطبعة الاميرية ببولاق في القاهرة سنة ١٨٩٢ / ١٣٠٨ في عشرين جزءاً . ثم أعيد طبع هذه الطبعة بالتصوير في السنوات الاخيرة . وطبع اللسان أيضاً في بيروت سنة ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ في ١٥ مجلداً . وكذلك طبع ببيروت ثالثة في ثلاثة مجلدات ضخام سنة ١٩٦٩ في دار لسان العرب . وقد أعاد أصحاب هذه الطبعة ترتيب الألفاظ في هذا المعجم حسب أوائلها ، وغيروا كذلك اسمه ، فجعلوه لسان العرب المحيط . فشوهوا خَلْقه ، وقطعوا أوصاله بهذا التغيير الذي لم يكن له داع من علم أو مرمى من تسهيل ، لأنه لا ينفع الكتاب ، ولا يجدي المطالع شيئاً . وأقحموا فيه بعض الصور ، وأضافوا اليه بعض الجداول . وكل ذلك ليس من أصل المعجم ، ولا قيمة له في ميزان العلم ، ولا فائدة ترجى منه البتة ، كما أنه لا يتفق وعظمة اللسان وجلاله . وألحقوا به أيضاً معجماً حديثاً للمصطلحات العلمية والفنية صنعوه مما أقرته الجامعات والمجامع اللغوية والعلمية في العالم العربي كما قالوا . وقسم الطابعون هذا المعجم الحديث

(١) لسان العرب ٣/١ .

الى ثلاث قطع حسب أجزاء اللسان الثلاثة في طبعتهم ، وضموا الى كل جزء قطعة منه في آخره . وليتهم لم يفعلوا ذلك ، بل ليتهم طبعوه على حدته في كتاب مستقل عن لسان العرب ، قائم بنفسه ، لانه جاء بطبعه هكذا في أواخر أجزاء اللسان كالدعي الملحق بالقوم وليس منهم .